ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

وعي الذّات والعالم في خطاب الرّحلة عند غادة السمّان
قراءة في كتاب "رعشة الحرية"

الأستاذة: حياة دقي
جامعة الجزائر-2-

ملخّص البحث:

حاولت هذه الدّراسة التي تتّخذ من أدب الرّحلة عند الكاتبة السوريّة "غادة السمّان" مادّتها لإثراء إشكاليّة الذّات كواحد من المباحث الفكريّة الفلسفيّة التي شغلت حيّزا كبيرا من المنظومة الفكريّة الإنسانيّة منذ القديم، وجعلت من سرد الرّحلة والبحث في تشكيله وخصوصيّته عند الكاتبة وسيلةً للكشف عن طبيعة رؤية غادة للذات والعالم ومدى استفادتها من آليّة الحوار والمثاقفة اللّذان يطبعان نصّها الرّحلي.

المصطلحات المفاتيح: وعي الذّات- رؤية العالم- خطاب الرحلة- السرد- الاغتراب- الآخر.

Résumé:

Cette présente étude, porte sur les récits de voyages de l'écrivaine syrienne Ghada Essammane. Elle se propose d'éclairer la problématique Identité /Altérité, en partant de l'analyse du discours de ces récits. Elle vise à les décortiquer pour en dégager les spécificités et les mécanismes profonds qui déterminent la vision du monde, et la représentation identitaire dans la dynamique du dialogue et de l'échange culturel, qui caractérisent cette littérature de voyage telle qu'elle se décline notamment dans son livre...

مقدّمة:

يعدّ أدب الرحلة أحد الفنون النثريّة البارزة التي غالبا ما ينحو فيها المبدع إلى تقديم المشاهد والرؤى والأحداث الرحليّة، عرف انتشاره في الأدب العربي الذي يحفظ لنا تاريخه القديم والمعاصر أسماء العشرات من الرّحالة العرب بداية من جيل ابن بطّوطة، وابن فضلان، وابن جبير، وانتهاء بجيل حسين فوزي، وأنيس منصور وأنور عبد اللّه،

وأحمد قنديل وغيرهم وهو الجيل الذي ارتبط عطاؤه الفنّي في هذا النّطاق بمراحل التّأسيس والتكوين والنّمو لحركة أدب الرّحلة طيلة تاريخه القديم والمعاصر.

وإذا كان تاريخ هذا الأدب قد ارتبط بأسماء العشرات من الرّحالة الرّجال إلّا أنّ هذا لم يمنع من ظهور العشرات من المرتحلات العربيّات المعاصرات، اللائي أثرين مجموع هذا الأدب بنتاج متفرّد ونادر بداية من جيل " بنت الشاطئ" في الخمسينات من القرن المنصرم في كتابها الشّهير (رحلة إلى أرض المعجزات)، وحتّى جيل المبدعة " نعمات أحمد فؤاد" في كتابها (رحلة الشّرق والغرب)، ونوال السّعداوي في كتابها (رحلاتي في العالم)، ووصولا إلى جيل "أهداف سويف" و"كريمة كمال" و"مها العطار" و"عفّت حمزة" و"قمر كيلاني" و"هالة سرحان" و"سعاد عبد الوهاب" من أجيال عقدي الثمانينيات والتسعينيّات، وغيرهنّ الكثيرات والكثيرات، ممّا أوجب على كلّ مهتم بهذا اللّون الإبداعي أن يقف حيّال هذه الظاهرة ليسجّل طبيعة اتّجاهاتها المضمونيّة والفنيّة على نطاق شامل.

تفرض "غادة السّمان" نفسها بمسيرتها الحافلة في الكتابة، من خلال أعمالها الأدبية المتنوّعة والشاملة التي تبحث دائما عن ذاكرة الأسئلة، هذه المرأة المنتميّة لجيل السبعينيّات ابنة دمشق المرتحلة لأوروبا لتجول العالم وتبدع في وصف ذاتها قبل وصف الآخر، ففنّ الرّحلة في عمقه ومبادئه يتجاوز النّقل الصّحيح للمشاهد والمعالم والرؤى التي يعايشها الكاتب في رحلته، إلى خطاب الآخر وجداله، بل إلى جدال النّفس ومصارعتها وفقا لثقافته ولخلفيّته الحضاريّة والأيديولوجيّة للوقوف على مواطن الخلل أو القصور في مجتمعه وأمّته، ومقارنتها بمواطن الكمال أو التميّز في المجتمعات والأمم الأخرى، أو العكس من ذلك أي الإعلاء من شأن الأنا في مقابل الآخر..

يعدّ كتاب "رعشة الحريّة" -وهو خامس مؤلّف للكاتبة في سلسلة رحلاتها- ذروة التشظّي بالسفر ونقل الارتحال من طابعه الجغرافي الملموس إلى سفر داخلي في عوالم الذات السائرة صوب النهضة بغية التماس شراكة إنسانية في حضارة عالميّة، وإذ نعمد إلى قرائته واستجلاء مضمونه فللإجابة على مجموعة من التساؤلات هي:

- هل أسهمت غادة السمان كمرتحلة عربية في بناء سرد رحلي يختلف عن مسيرة كتّاب الرحلة في الأدب العربي؟

- وهل الرحلة عند غادة سفر شكلي وجغرافي أم ارتحال دائم في فهم ووعي الآخر انطلاقا من البحث في الذات وعنها؟

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

– كيف جعلت الكاتبة من الرّحلة والكتابة فيها ملاذًا للاحتماء من عفونة الواقع وقصور الوعي الثقافي؟.

1/ الرّحلة وإشكالية التجنيس:

لقد ألِف الكتّاب والدارسون استعمال مصطلح "أدب الرحلات" في كلّ كتابات الرحالة العرب قديما وحديثا التي يصفون فيها البلدان والسكّان، ويضمّنونها كثيرا من الأحداث التي شاركوا فيها برّا أو بحرا، ويسجّلون انطباعاتهم الشخصية حول تلك الأحداث، وقد يصدرون أحكاما تتوافق ورؤاهم الفكريّة والعلميّة، والأصل في أدب الرحلة أن تكون هناك رحلة واقعية وسفر ينتج عنه متن سردي ونصّ يطلق عليه "أدب الرحلة" بمعنى «جنس أدبي يقوم على محكيّ السفر، كما أن أنماطه وأنواعه توظّف هذا المحكي بصيغ مختلفة وأساليب متنوعة»[1] فالسّفر هو المعيار المركزي والمكوّن الأساسي الذي يساهم في بناء وتشكيل النص الرحلي، هذا ويقوم أدب الرحلة عل عنصرين أساسيين لا يستغني أحدهما عن الآخر، نص أدبي لا يخلو من الخيال، ورحلة واقعية. ويقتضي ذلك أن تطفو أدبية النص .وما تستلزمه من حضور تعبيري يقطر سرداً ووصفاً وبهاءً لغوياً .على سطح مادة رحلية واقعية حدثت بالفعل في الواقع المكاني للكاتب إذ « تعبّر الرحلة وقصّة الرحلة (أو المذكّرات)، في ممارستها والتعبير الأدبي عنها، عن لحظة ثقافيّة معروفة جيّدا هي لحظة التقاء الإنسان مع العالم الخارجي»[2]، هذا التلاقي الذي يتولّى الرحالة وصف طبيعته من خلال وضف ذاته والعالم لأنّ الرّحالة « واحد من المفاتيح التفسيرية للعالم والتاريخ خاصّة إذا امتلك نوعا من الحكمة المأخوذة من الكتب، أو روحا فلسفيّة للرحلة، وأدب الرحلات، حدود تاريخية هي الاكتشافات الكبرى في مطلع العصر الحديث»[3]، فالرّحالة في نظر "دانييل هنري باجو" هو إنسان مثقّف وواعي، وصاحب روح يجب أن تنعكس على رؤيته للعالم من خلال ما يقدّمه كوصف لرحلته وسردا عنها مثلما سنرى مع الكاتبة الرحالة "غادة السمان" التي كشفت لنا عن نصّ رحلي مغاير عمّا عهدناه عن أسلافنا الرحالة العرب قديما وحديثا.

---

[1] عبد الرحيم مؤدن، "الرحلة في الأدب المغربي النص –النوع- السياق"، إفريقيا الشرق، دط، المغرب، 2006، ص:05.

[2] دانييل هنري باجو، "الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دط، ص:49.

[3] المرجع نفسه، ص:49.

وفي المستوى الأجناسي نجد الرحلة نصّا غير واضح الحدود، يمكن أن يسكب فيه أي شيء وقد أشار "سعيد يقطين" في سياق تأصيله لمفهوم خطاب الرحلة، إلى أنّ الاشتغال بأحد الطرفين، الفعل المادي أو الخطاب، هو الذي أفرز تباين التسميات للنوع المتعلّق بالرحلة إلى: الرحلة، أدب الرحلات، الأدب الجغرافي من جهة، وأدّى إلى اختلاف في تحديد طبيعة الخطاب من جهة أخرى «فمنهم من يعتبره تاريخا وآخر جغرافيا وآخر سيرة ذاتية، أو قصّة»[1]. لكنّ الطابع الوصفي الغالب على النص الرحلي يجعل من الرحلة جنسا أدبيا وصفيا بامتياز، خاصة أن الوصف في الرحلة لا يعدّ خادما للسرد بل ندّا له.

ولأنّ السّرد من مكوّنات خطاب الرحلة التي تتضافر مع المعرفة والوصف والشعرية وغيرها لتشكّل بنائه فلا تنفكّ الكتابة الرحليّة عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه ما دامت تنقل إلى المتلقّي أحداثا وأفعالا قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثمّ العودة إليها، والسّرد يبدأ مع الرحلة، ويستمر إلى نهايتها، وهذه المسيرة السرديّة تتكوّن من مقاطع سردية دائمة الحضور في كلّ الرحلات، ومقاطع سرديّة تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى، والمسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطّات يتوقّف فيها السرد ليفسح المجال لمكوّنات أخرى بالاشتغال،فيحضر الوصف وتُقدّم معلومات ومعارف في إطار بنية مهيمنة تؤطّر الأحداث وتنظّمها هي بنية السّفر.[2]

يصف لنا "دانييل هنري باجو" الرّحالة-الكاتب مبدع القصّة ومنظّم السّرد ومخرج شخصيته ذاتها أنّه «راوٍ وممثّل ومجرّب وموضوع التجربة، ومسجّل مذكّرات أفعاله وحركاته، وبطل تاريخه الشخصي على مسرح أجنبي، وخشبة مسرح بعيدة، ولكنّها حاضرة أيضا من خلال القصّة، إنّه الشاهد الوحيد في مواجهة جمهور يعدّ ساكنا بصورة مطلقة»[3] ولذلك يجد الدّارس لمتون الرّحالة التعريف بمختلف الأماكن والحدود والذوات، ووصف للمشاهد والرؤى المختلفة التي يلقاها المرتحل طوال فترة ارتحاله، هذا

[1]سعيد يقطين، "السرد العربي مفاهيم وتجليات"، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006، ص:201.

[2]يُنظر: محمد الحاتمي، "الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي"، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، ط1، الرباط، 2012، ص:26.

[3]دانييل هنري باجو، "الأدب العام المقارن"، ص: 53.

الذي نلفيه في أدب الرحلة العربي الذي كان تعريفا للآخر وتعرّفا له ضمن حدود المكان والزّمان والفكر والخيال، وتصيّدا للفوارق ولكلّ ما هو مدهش.

أمّا رحلة "غادة السمان" فلم تقتصر على نقل المشاهد والأحداث فحسب وليست الرحلة عندها محض رسالة تبليغ عن مشاهدات، لأنها كرحّالة لم تكن محايدة في رؤيتها للعالم، بل ركّزت رؤيتها على السمات المتميّزة في كل ثقافة وعن روح المجتمعات، وتطلّعاتها الإنسانية والفكريّة والحضاريّة.. في قالب سردي مفعم بالشعرية ممّا أكسب جنس الرحلة عندها طابعا مميزا وجديدا فمعها « أصبحت الرحلة تعبيرا عن قلق المرتحل الداخلي ورفضه العالم، ولعبة ذكيّة يفرّ بها الإنسان من عالمه الضيّق إلى عالم أرحب لا يروي ظمأه إلى التلاؤم مع الحياة. »[1]كيف لا وهي الأديبة التي تبكي وطنها سوريا ووطنها لبنان والوطن العربي الجريح كلّه وطالما أخذت الهمّ العربي على عاتقها تبوح به حيثما حلّت وارتحلت.

2/ الرحلة ومعرفة الذّات:

معروف أنّ الرحلة جنس أدبي يقوم على محكيّ السّفر فالنّص المنتمي إلى "أدب الرحلة" يجب أن يكون نابعا من بنية السّفر، فالرحلة «كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه من أحداث مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم»[2] ففي النهاية نحن أمام فعل الارتحال وفاعل هو المرتحل الذي ينقل لنا أحداث سفره وما عاشه في قالب سردي خاص.

لا تنفكّ الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه ما دامت تنقل إلى المتلقي أحداثا وأفعالا قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثمّ العودة إليها، والسرد يبدأ مع بدء الرحلة، ويستمرّ إلى نهايتها وهذه المسيرة السردية تتكوّن من مقاطع سرديّة دائمة الحضور في كلّ الرحلات، ومقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى، والمسيرة السرديّة في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لمكوّنات أخرى بالاشتغال، كان يوقف الراوي

[1] عبد اللطيف الأرنؤوط، "غادة السمّان ومسيرتها الثقافية والإبداعية دراسات"، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، لبنان، 2013، ص: 241.

[2] محمد الحاتمي، "الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي"، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، ط1، الرباط، 2012.، ص: 18.

السّرد ليقدّم وصفا أو ليقدّم معلومات ومعارف، أو ليسوق شعرا وغيره من التضمينات الممكن تضمينها في المتن السّردي للخطاب الرحلي كلّه.[1]

ومهما تعددت خصائص الكتابة الرحليّة تبقى الذاتيّة خاصيّة بارزة فيها إذ تحضر ذات الرّحالة في رحلته وليس هذا بمستغرب ما دامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات، والحكي سواء كان بضمير المتكلّم (مفردا) أو جمعا (صيغة الجمع) أو بضمير المخاطب (كما سنرى مع غادة السمان التي تشرك القارئ في إنتاج نصها الرحلي) فهذا تجلّ من تجليات الذات في أسلوب الكتابة، لكن في مقابل ذلك لا يجب أن نغفل عن الشقّ الآخر من المسألة، إذ لا يمكن أن نحذف ردّات الفعل المادية للرحالة -مقابل الذاتية المذكورة آنفا- التي تظهر أدبيا كنتائج نفسية لوضع جسدي ومادي: الانكفاء على الذات، وحلم اليقظة، والهجر والعذب، ولذّة الاكتشاف وسعادة تجدد اللقاءات، وازدواجية الانطباعات، وآلية الإشارة، وتداعيات الصورة، وتوزيع الاستطرادات التي يجب أخذها أحيانا في بعدها الكوني كلّه، فالرحالة يحدّث نفسه ويراها في القطار وهو يقطع فضاء مثلا، ويحصي الأماكن التي من المهم دراسة ظهورها وعرضها مثل: الأماكن الحضرية (متحف، معرض، كنيسة، منتزهات، حدائق، صالونات، أوبيرا)، والأماكن المقدّمة كأماكن مفتوحة أو مغلقة، والأماكن الطبيعية، وغرائب الطبيعة، وحالات الصعود والنزول، والسير مع نهر، أو طريق... في موازاة خطّ الرحلة، تنتشر بوضوح إلى حدّ ما، كتابة الذات، وعن الذات ومضاعفة الكتابة الرحلية، هذا ما يجعل من الرحلة رائعة ومقلقة في آن.[2]

ولننظر في رحلة "غادة السمان" مدوّنة بحثنا هذا لنلفي مدى محوريّة الذات فيها فهي أصل السؤال كلّه كيف لا وهي التي قالت في معرض جواب لها على سؤال بخصوص السفر ومقدرا إفادته لأدبها أنّ: « السفر يعلّم الإنسان التواضع (...) السفر يعرّي الإنسان من انتصاراته الصغيرة في قريته الصغيرة، ويقذف به عاريا من أوهام مجده وأقنعته إلى شوارع الحقيقة ومواجهة الذات في مرايا الغربة.»[3]والكاتبة إذ تصرّح بهذا فبحكم تجربتها الخاصّة ومسيرتها المطوّلة مع الترحال حيث أدركت من خلالها كيف تتغيّر نظرة الإنسان العادي لذاته وجوهره عندما يصطدم بالعالم وينفتح عليه وعلى ما فيه

[1] يُنظر: نفس المرجع، ص:26.

[2] ينظر: دانيال هنري باجو، "الأدب العام المقارن"، ص: 56.

[3] غادة السمّان، "القبيلة تستجوب القتيلة"، منشورات غادة السمان، ط1، بيروت، 1981، ص: 141

فما بالك بالكاتب الذي يعي ضرورة الانفتاح على الآخر وعلى ثقافات الغير بحيث يوسّع الرحيل من آفاق الكاتب ويطلعه على ما لا يخطر له ببال.

وغادة السّمان الإنسانة والكاتبة معروفة بترحالها الدّائم فهي التي قضت إثنتي عشرسنة بين باريس ولندن وروماولمّا سُئلت عن سرّ هذا التشرّد وسببه أجابت أنها تهوى الغوص في المجهول باحثة عن أفق جديد وترى في رحيلها محاولة للهرب من الذات ومحاولة للنسيان أيضا، كيف لا؟ ونحن نعلم أنّ غادة إذ ترتحل فهي تحمل معها الهمّ العربي والجرح العربي، إنها الكاتبة التي نقشت تفاصيل الحرب الأهلية في لبنان وما عانته الشعوب الكادحة طوال فترات الحروب في متونها الإبداعية نصّا بنصّ وقصّة تلو الأخرى، غنها إن غادرت جغرافيا بلدها الأصل سوريا أو بلدها الحبيب لبنان وارتحلت إلى عواصم العالم كلّه فهي بروحها باقيّة فيها تحنّ إليها وتكتب عنها حيثما حلّت وارتحلت، بل تجد في الحبر والورق عزائها المعين على الفراق وحسبها الرسالة التي تتشاركها مع قارئ تتمنى أن يحسّ بكلماتها ويشاركها الوجد .[1]

تضعنا غادة مع مؤلّفها " رعشة الحريّة" منذ الوهلة الأولى أمام شعور عميق ومزدوج يربط بين اللذة والألم إحساس بالانتشاء ينتابك وأنت تتلفّظ بهذا العنوان الذي يبدو أنّ الكاتبة انتقته بدقّة ولم يأت اعتباطيا، وليس غريبا عن الكاتبة التي نلمس في مجمل أعمالها إن لم نقل جميعها تلك اللمسة الشاعرية في صياغة العناوين، وفي سياق جمالية العنوان نجد الباحثة "ماجدة حمود" في دراسة لها تشرح كيف أنّ الكاتبة في مؤلفها هذا « تنقل لفظة (رعشة) من دلالتها الجسديّة إلى دلالتها الروحية بفضل مجاورتها لفظة (الحرية) إذ يتيح السفر للإنسان فرصة العيش في عالم ممتع، تنطلق فيه الروح من أسرها، ومثل هذه المتعة حرمها الإنسان العربي في بلاده، لهذا يزداد شوقه ورغبته في ممارسة "رعشة الحرية" فيحصل على لذّة الانطلاق والمغامرة بعيدا عن الخوف والقمع»[2].فحريّة الإنسان عند غادة هي فوق كلّ اعتبار لأنه مقياس كلّ شيء وهو يقف منفردا في مواجهة الحياة، هذه العزلة للشخصية الإنسانية التي تلحّ عليها غادة وتحرص

[1] يُنظر: غادة السمان، "البحر يحاكم السمكة"، منشورات غادة السمان، ط2، بيروت- لبنان، يوليو1992، ص: 20.

[22] ماجدة حمود، "غادة السمان وجماليات العنوان"، مجلة علامات، ج54، م14، ديسمبر 2004، ص: 313.

على جعلها فريدة ومميزة إنما تعكس لنا إحساسها الذاتي بتفرّدها هي ووحدتها باعتبارها مُنشئة النص ومرسلته.

تطوف غادة السمان بقارئها في كتابها "رعشة الحريّة" في قارّتين معروف أنهما حققتا للإنسان في حضارته الراهنة كل ما يصبو إليه من التحرّر والتكيّف مع الواقع والعالم، فتنقلنا من خلال سردها إلى (نيويورك، وواشنطن وشواطئ كاليفورنيا وكوبنهاجن وستوكهولم وجنيف وبروكسل ولوزان وسالزبورغ والتيرولوبافاريا وكولونيا وبرن وأمستردام وبرشلونة) وهي أبرز عواصم الغرب ومدنها، هذه العواصم التي عمدت الكاتب إلى تعريتها والكشف عن واقع الحياة فيها دون أن تقع لا في فخّ الانبهار ولا الاحتقار، لأنها تنطلق من مبدأ مفاده أنّ الرحيل لدى الإنسان ليس له من هدف في الحياة سوى تحقيق حرّيته، أن يتحرّر داخله من قوى تتآمر على تقييدها، فغادة السمان لا ترى في مظاهر الحياة المعاصرة، وصورها الباذخة التي توفر للإنسان رفاهيّته الماديّة من مطاعم راقيّة وسيارات أنيقة وقطارات مكيّفة ووسائل راحة عصرية علامات فرح وتحرّر يعزّزان مقدرة إنسان العصر على تحقيق حريّته، فهذه الوسائل العصرية لا تعدو أن تكون تكثيفا لأحلام إنسانية عميقة هي في جوهرها أكبر من المتعة المادية، إنها تعبير عن طموحات إنسانية تتجاوز الواقع إلى نداء لحرية عميقة.[1]

تنقل غادة في مدخل رحلتها إلى الولايات المتحدة أقوالا لأعلام الفكر الغربي في تقويم مدينة أمريكا، نلمس منها أن العنف إحدى الصناعات الأمريكية وأنّ اندفاعها الحضاري حقق رقما قياسيا في السرعة دون أن تعرف إلى أين تسير، والإنسان فيها مسحوق ووحيد كما عاينته غادة قائلة: « في ممشى "الأوكواريوم" البشري تجرّعت قهوتي وتأمّلت الناس الوحيدين وهم يلتهمون الشطائر الأمريكية هائلة الحجم بكآبة هائلة أيضا...»[2] من هنا يتّضح لنا مدى إحساس غادة بالوحدة بحيث أنها شعرت بمن هم على شاكلتها واستطاعت عدسة روحها أن تتصيّدهم وتقرأ الكآبة في نظراتهم وتصرفاتهم ولم يمنعها من رؤية ذلك لا زحام الناس ولا صخب المكان أوسرعة الزمن الذي لا ينتظر أحد لا سيما في نيويورك، ولانّ نظرة غادة لا تقتصر على ما هو سلبي فحسب نجدها في مواضع عديدة تشيد بكلّ ما هو حضاري وإنساني يلفت الانتباه ففي مانهاتن تعترف قائلة: « الجميل في مانهاتن خاصّة والحضارة الغربيّة عامّة أنّها تعي أخطائها وتناقشها علنا ولا تحرم الحديث

[1] ينظر: عبد اللطيف الأرناؤوط، " غادة السمان ومسيرتها الثقافية والإبداعية دراسات"، ص: 242.
[2] غادة السّمان، "رعشة الحرية"، منشورات غادة السمان، ط3، لبنان، يونيو 2014، ص:11.

عنها، وهي لذلك قابلة للتطوّر والأنسنة أكثر من تجارب مجتمعات "التابو" حيث الماضي مقدّس كما بعض الأفراد، وتنصبّ مهمة بعض الكتّاب على تجميل العيوب والازدواجيات.»[1]نلمس في هذا القول اعتراف الكاتبة بقصور الحضارة العربية في مقابل الحضارة الغربية القائمة على مبدأ التصالح مع الذات والاعتراف بالخطأ ثمّ السعي لتصويبه فالقضاء عليه بينما تصرّ المجتمعات الشرقية أو مجتمعات التابو كما وصفتها على التشبث بالخطأ ومداراته وتجميله بدل الاعتراف به، وهذا الموقف ينمّ عن وعي لدى الكاتبة الرّحالة التي تعيش اللحظة بعمق وتنسج منها صورة متكاملة المبنى والمعنى، وهذا راجع لفلسفتها في الحياة القائمة على ثنائية اللذة والألم « الألم هو نتيجة مواجهة الذات بحقيقتها وحقيقة ما حولها»[2] فهي ترى في الألم نتيجة حتميّة للوعي ومستعدّة لتحمّله وأكثر من ذلك ترى في « تدمير الذات الوجه الآخر لعملة حفظ الذات وغريزة البقاء. والظلمة هي وحدها التي تعطي الشمس معناها، وثنائية النفس البشرية انعكاس لثنائية الوجود، وفي أعماق كلّ إنسان مقدار ما من تدمير الذات بنسب متفاوتة.»[3]ولا يرعب غادة مثل هذا التدمير المنتج ما دام الاعتراف يؤدي إلى الوعي والوعي ينتج الفكر والأخير يعيد بناء الذات وفق منطق موضوعي يضمن للفرد العيش والتعايش مع العالم وفيه.

3/ الرّحلة وهاجس الاغتراب:

إنّ الحديث عن الاغتراب منوطا بأدب الرحلة عند غادة السمان أمر بدهيّ ما دامت الكاتبة ترى في فعل الكتابة نفسه هروبا وملاذا من عفونة الواقع وقصور الوعي الثقافي، فهي تعتبر الكتابة المرفأ الحقيقي لأنه الوسيلة التي تجعلها تتصل بالآخر وتتواصل معه فتحسّ به ولهذا تعارض مقولة سارتر "الجحيم هو الآخرون" لتقول: «المرفأ هو "الآخرون".. بمعنى أنّ "الآخرون" هم ملايين العرب البسطاء الذين يناضلون من أجل حقهم في أن تسود القيّم الإنسانية، إنّ انتمائي إلى كفاحهم هو المرفأ، ولولا ذلك لظلّ البحر مرفأي والأمواج جدراني والصّدفة مغارتي والضياع سفينتي والتأنّق اللغوي صيدي.»[4]وكأنّ بالكاتبة تعترف ضمنيّا بسوداويّة تجاه الواقع الذي تعيشه والذي خلقت له بديلا ليكون المهرب والملاذ حيث أخذت على عاتقها كما تدّعي مهمّة الدفاع والكفاح

[1] المصدر نفسه، ص: 12.

[2] غادة السمان، "القبيلة تستجوب القتيلة، ص: 83.

[3] نفس المرجع، ص: 90.

[4] غادة السمان، "القبيلة تستجوب القتيلة"، ص: 316.

عن كل المظلومين والنطق بلسانهم مادامت تملك الوسيلة لذلك فهي تخلق من ذاتها ذاتا ناشئة من مجموع الذوات المحيطة بها لأنها إنسانة تعي جوهر الإنسانية وتصبو لتجسيدها، كما تحلم بحريّة الإنسان وجعلت من ذلك هاجسها الدّائم الذي تعبّر عنه بسلوكاتها كما في كتاباتها وعن نوع الحريّة التي تنشدها غادة السمان تقول: « الحريّة التي أحلم بها، هي حريّة (التعددية) تعدد الآراء ووجهات النظر والصّراع الفكري المفتوح بعيدا عن الإرهاب والقمع والتخوين المسبق. حرية الخطأ، والنقاش، والانتقال من أطروحة إلى أخرى ضمن مناخ إنساني يحترم الفكر الآخر، بشرط عدم الخروج عن شطرنج الأبجديّة إلى دهاليز الإرهاب.»[1]

ولأنّ الشعور بالغربة تيمة حاضرة في كتابات "غادة السمان" سواءا في أدب الرحلة أم في الكتابات القصصية منها والروائية فهذا يعود إلى فلسفة ورؤيا خاصة عند الكاتبة التي تنظر إلى الغربة من زوايا عديدة فذلك الإحساس الذي ينتاب الفرد العربي عن الوطن عندما يسافر عنه ويغترب هو غربة، ورحيل التاريخ وضياعه غربة، تتستّر السلطة على الفساد بدلا من أن تنظّم مسيرة إلقاء القبض على الأهداف المعلنة فيه غربة، بل هناك غربة على صعيد العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة، وبين الرجل والرجل كزميل في العمل أو الحزب أو الدكّان وهناك ما يعرف بالغربة الوجوديّة التي يحسّ بها الإنسان من وقت لآخر تتفجّر من غموض الوجود وإبهام الموت، فوحدها الذات الإنسانية حينما تخلو بنفسها وتحاورها تكشف عن أشكال أخرى من الاغتراب وبناءً على هذا التصوّر الذي تنسجه الكاتبة عن مفهوم الغربة وماهيّتها يتسنى لنا الوقوف عند حدود ما يكتنفه سرد الرحلة في رعشة الحريّة وهل اختارت غادة الاغتراب عن حريّة أم الاغتراب اختار أن يطفو على نصوصها عنوة؟.[2]

طالما السفر صفة ملازمة لغادة فهي ترى فيه المعرفة (معرفة الذات) والحريّة (الإبحار نحو الأعماق) فكلّ رحيل بالنسبة لغادة رحيل إلى عوالم الذات فالرّحيل عندها « ليس عبورا إلى الخارج بقدر ما هو رحيل إلى الداخل.. وكلّ خطوة إلى قارّة جديدة لم تكن أكثر من خطوة إلى دهاليزي ومزيدا من الاقتراب من ذاتي الحقيقيّة..»[3]، وتأسيسا على هذا التصريح العلني يتّضح لنا من خلال رحلة غادة في " رعشة الحريّة" مدى تمثّلها الموضوع

[1] غادة السمّان، " البحر يحاكم السمكة"، ص: 53.

[2] يُنظر: غادة السمّان، "القبيلة تستجوب القتيلة"، ص: 184.

[3] غادة السمان، " القبيلة تستجوب القتيلة"، ص: 193.

بدءا بطريقة عرضها للمشاهد وصوّر المدن مرورا بأحوال الناس فيها وطبائعهم وتفاصيل يومياتهم، وصولا إلى أعمق نقطة يمكن لكاتبة واعية استقصائها فَعرضها.وها هي في واشنطن التي تنعتها من العنوان ب "عاصمة الألف نصب ونصّاب" فهي وإن كانت مدينة نظيفة وجميلة تبدو في عين السائح آمنة فإنّ الكاتب تعرب عن صدمتها حين طالعت الأرقام لتجد« أنّها الأولى من حيث جرائم القتل في الولايات المتحدة (وتوابعها من اعتداءات)!ويكاد لا يصدّق أنّ هذه الساحات الجميلة والشوارع المدججة بأشجار الكرز المشتعلة بأزهاره المتوهجة براءة، والمزنرة بالجنائن التي تقفز فيها السناجب اللطيفة، هي مكان خطر وعنيف وزاخر بالسكاكين والمسدّسات والموت تحت الشمس وفي ضوء القمر وفي أزقة الفقر التي لا يدخلها أيّ منهما، ناهيك عن النجوم»[1] من هنا يمكن أن نجد تبريرا لأسلوب غادة السّاخر حيال المكان فهي الهاربة من الموت وأجوائه في رحلة البحث عن الذات والصفاء، رحلة للبناء والتشييد هاربة من عفن الحروب ورائحة الدمّ هاهي تصطدم بالموت مجددا لكنّه هذه المرة مغلّف بالجمال!

ونجد غادة ككل مرّة مع رحلة من رحلاتها ومع كلّ مؤلّف من مؤلفاتها تشكي غربتها وتبحث في جوف الليل ووجوه المارة والأرصفة عن مؤنس حتى وهي في أجمل عواصم العالم «مساء الخير يا شوارع نيويورك المرعبة ليلا حيث تركض وجوه عليها أن تأكل أو تؤكل مدجّجة بوحشتها ومخاوفها... فالتسكّع مع الريّاح على أرصفة الغربة خير من تعليب المرء داخل قطن الدلال وسط أنابيب مفرغة من الهواء خوفا من "الميكروبات".»[2]يُظهر هذا المقطع كيف أنّ غادة لم تغترّ لا بجما المكان ولا بشاعريّته، وهذا راجع لعدم قابليتها لذلك ولأنّ الشعور بالاغتراب أقوى من أيّ شعور ومع أنها تسافر عن رغبة لا مكرهة ولا مجبرة إلّا أنّ أعماقها التي تناجي الماضي هي من تتحدّث لا سيما في الليل ولهذا نجدها تستعير ألفاظ من سبيل: المرعبة/ الغربة/ تعليب المرء.. فبدل شعور الانتشاء والإقبال على الفضاء يحاصرها شعور بالضيق يجعلها تسخر من بعض مظاهر الحياة في نيويورك كبشاعة ناطحات السحاب وغياب الكتب في مقابل وفرة الأشرطة المسجّلة وعبوديّة الإنسان للعمل والدولار في مانهاتن وغيرها من مظاهر العيش هناك، فلا يشدّ غادة إلا الأماكن الطبيعية كشاطئ البحيرة التي تحيط بالمدينة وخضرة

[1] غادة السمان، " رعشة الحرية"، ص: 43.

[2] المصدر نفسه، ص: 26.

الأرض في حديقة "هايد بارك" وإطلالة نهر "بوتوماك" في مدينة " واشنطن" وفي هذا هروب إلى الطبيعة ومناجاتها واستشعار الحريّة في حضنها.

إلى جانب الشعور بالاغتراب يطبع نصّ رحلة الكاتبة تقنية سرديّة بارزة تتمثّل في الاسترجاع أو العودة إلى الوراء والنبش فيه لدوافع ذاتية تتعلق بالحنين إلى الوطن تارة ومناجاة الزمن الجميل الغابر والمسلوب تارة أخرى ويتجلّى هذا في نصّ رحلة غادة التي تضمّن سردها رسائل مع كل زيارة تقوم بها أثناء رحلتها ومع كل مكان جديد تتنقّل فيه نجدها تربط بين ما تشاهده عينها الرحالة وبين ما تحمله في قلبها عن تراثها المجيد الذي لم يفارق ذاكرتها، فها هي في "جنيف" تصفها قائلة:«جنيف تصلح دونما شكّ لتكون مصحّا نظيفا معقّم الزهور مذهل النظافة.»[1]إنها المدينة التي أشادت بها الكاتبة على مدار صفحات وإن كانت وصفتها بالمصحّة فلهذا في تأويلنا علاقة بقضية توافد العرب عليها التي كانت "غادة" قد أشارت إليها مستغربة ويبدو أنها تسائلت فأجابت! فما دامت جنيف مصحة لا توازيها عيادات الأطبة النفسانيين وما دام العرب (رؤساء دول وعامة الشعب من السياح) يتوافدون إليها للاستجمام فذلك حق مشروع بحكم طبيعة الحياة في بلدانهم ونمط التفكير أيضا.

وفي نفس السيّاق ومع نفس المكان "جنيف" تستوقفنا مقالة للكاتبة في مدونة بحثنا هذا بعنوان " من هارون الرشيد إلى أحفاد شارلمان" التي تحمل في ثناياها مرجعية واقعية تراثية يمكن استنطاقها انطلاقا منهذا المقطع السردي الذي تقول فيه الكاتبة: «الزائر العربي سيشعر بالغصّة في متحف الساعات، حين يتذكّر أنّ ساعة هارون الرشيد التي أهداها ذات يوم إلى شارلمان أذهلته ونبلاء بلاطه بدقّتها وجمالها... أمّا اليوم فنحن نستورد ساعاتنا من أحفاد شارلمان.»[2]يختزل هذا المقطع السردي الكثير من الدّلالات ويحمل من الأنّات والغصّات ما يشبه الرّثاء، كما يسعنا وصفه باعتراف، فالكاتبة إذ تستعير تعبير "الزائر العربي" كدالّ فهي تُحمّله بالمقابل مدلولات عديدة، لأنّ هذا الدال ينوب عنها وعن القارئ وعن كلّ عربيّ أصيل تملأه النخوة وتعتريه الغيرة على مجده وأصوله، فالزائر العربيهنا هو غادة وكلّ من تمثّله غادة بدءا بقرّائها وانتهاءا بكلّ عربي، إنّه الذات المتخيّلة التي تحيل على مجموع ذوات، والشعور بالغصّة هنا شعور الكاتبة وهي تستذكر وتتمنّى لو أنها واقفة باعتزاز وشموخ أمام مجد الملك "هارون الرشيد"

[1] المصدر نفسه، ص: 74.

[2] المصدر نفسه، ص: 80.

باسمه ومسمّاه فتنهل من الأصل بدل وقوفها أمام حفيدٍ هو الفرع غير المرغوب به، فكأنّ بها تتساءل بأسف: ما الذي جعلنا نصير هامشا بعدما كنّا نشكّل المركز؟ أين كنّا وكيف أصبحنا؟ ولماذا؟ هي تساؤلات وغيرها لم تصرّح بها غادة لكنّها حاضرة ضمنيّا من خلال المقطع السردي أعلاه حيث تلخّص الكاتبة مأساة العرب مع الماضي والحاضر في آن، وبين هذا وذاك قطار المستقبل سائر ويمضي وإذا نحن (العرب) لم نصعد إليه فهو لن يتوقّف وإذا لم نحرّك زمننا فإنّ ساعات العالم كلّه لن تتوقف.. هكذا تتمنى غادة وترسل للقارئ رسالتها هذا ذات القالب المواري والإيحائي المستفزّ! فهي تستفزّ مشاعر القارئ لا شعوريا من خلال تعابيرها المحنّكة والرصينة فتثير غيرته قصد استنهاض الهمم حتى تستفيق الأمة وتعي تأخّرها ومدى عظمة وأصالة ما ضيّعت أو استُلب منها ربّما! هكذا بدا الأمر فنحن نتعامل مع سرد رحلي حيث « الرحالة لا يقول كلّ شيئ على القارئ أن يتكهّن بين السطور والوقفات، بأسباب الصمت، أو تسريع الحدث، أو الحماسة، التي تنتهي إلى أن لا تجد كلماتها، والتقزز الذي يفضّل الصمت اعتراف الرّحلة، كتابة عاطفية، ذاتية دائما، وهو أيضا شاهد على حساسيّة الفرد، أو حتى جيل أو عصر.»[1]تلك الحساسيّة التي نستشفها من طريقة العرض والوصف التي يتبناها الكاتب ونقيم على ضوئها قرائتنا والتأويلات الممكنة.

4/ سرد الرحلة بين الوعي والمخاتلة:

لا ينفصل السّرد عن الكتابة الرحلية ولا يفارقها وإن كان هنالك فرق بين الرحلة كفعل والرحلة كخطاب فهذا يكون في حالة ما لم يكن الرّحالة نفسه الكاتب للرحلة والسارد إياها بحيث تكون « بين الفعل والخطاب مسافة زمانيّة. فالأوّل سابق والثاني لاحق والذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلّم.»[2]فالرحلة كفعل قامت بها شخصية معينه ، أما الخطاب فينجزه مرسل آخر ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة وهذا لا ينطبق على مدوّنتنا هذه حيث لا وجود لانفصال لأنّ الذات الساردة هي نفسها الذات الرّحالة وبالتالي يتسنّى لنا من خلال تفكيك بنية السرد وتحليله استجلاء العوالم الخفيّة وما يخالج الذات، ولأنّ الكتابة عن الرحلة كتابة استرجاعيّة إذلا وجود للفوريّة

[1] دانيال هنري باجو، "الأدب العام المقارن"، ص: 54.

[2] سعيد يقطين، "السرد العربي مفاهيم وتجليّات"، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2012، ص: 175.

في كتابة الرحلة ارتأينا إلقاء الضوء على القالب السردي الذي اكتمل به نصّ الكاتبة انطلاقا من البحث في أسلوب السرد ومدى حضور الوعي فيه.

إذا تتبّعنا مسار السرد ووقفنا عند بعض الجزئيات التي قد تبدو للوهلة الأولى ليست ذات أهميّة قصوى يجعلنا نلمس طريقة الكاتبة في التفكير والتحليل، تحليل المشاهد والرؤى واستقراء الأماكن التي تجول فيها طوال ترحالها، وكيف تعمد غالبا إلى المقارنة بين ما تراه وبين ما خلّفته ورائها من رؤى عن بلادها وعوالمها الشرقية التي لم تغادر ذاتها لحظة وإن كانت غادرت مناخها الجغرافي وسافرت بجسدها فبروحها وذاكرتها لم ترحل، ومن خلال ما يشدّ انتباهها لحظة المشاهدة فتنقله لحظة الكتابة يظهر للقارئ مقدار الوعي الذي تستقرء به غادة وكيف أنها تحمّل الوصف رسائل ذات دلالات تعكس ما تشعر به وما تتمناه فها هي في سويسرا حيث البهاء تقف غادة بحسرة أمام هالة البطاقات البريديّة المركّبة عن المدينة وجمالها في حين لا وجود لبطاقات كهذه عن بلداننا العربية ولا في لبنان البلد الجميل الذي سُلب الخضرة والبهاء، ولننظر في المقطع الآتي: «يتمنّى السائح العربي وهو يشتري هذه البطاقات البريديّة أن يجد مثلها في بلاده، بلاد العراقة والجمال والأصالة.. وبكثافة حيث تكون قاعدة لا استثناء.. فهل نزوّج الجمال والعراقة في بطاقاتنا البريديّة العربية؟ ومتى نعيد الروح إلى ملصقات الماضي ورسومه في بطاقات بريديّة مستقبليّة تتعانق فيها الأصالة والمعاصرة؟ ومن قال إنّ محتويات متاحفنا منذورة للغبار وعاجزة عن ضخّ الدّم الإبداعي في حياتنا اليوميّة العصرية؟.»[1] هكذا تتشكّل رؤية الذات عند الكاتبة على ضوء وعيها بانقسام الثقافة الإنسانية/ العالميّة ما يدفع بها إلى الاعتراف بقصور في بناء الذات وهيكلتها انطلاقا من العجز الذي عبرت عنه والتأخر الحضاري الذي تعاني منه الشعوب العربية في مقابل الحضارة الغربيّة التي سبقتنا بأميال، هذا الاعتراف هو وعي بالكتابة وبنقد الذّات على العلن متخّذة من أسلوب الاستفهام وسيلة للتعبير بسخط ونقم على الوضع ، والمثير للانتباه هنا هو أنّ وعي الكاتبة لا ينحصر على جزئية نقد الذات والاعتراف فحسب بل يتجاوزه إلى الرغبة في التغيير والسعي لذلك من خلال أسلوب التحريض واللّعب بالكلمات واتّخاذ اللغة وما تتيحه من بدائل سبيلا للتأثير في القارئ وتحريك مشاعره كيف لا؟ والكاتبة تشرك القارئ في السّرد من أول صفحة حتى آخر صفحة من خلال توظيفها لضمير

[1] غادة السمّان، "رعشة الحريّة"، ص: 86.

المخاطب "أنت" فمع مطلع كلّ مقالة من المقالات التي مجموعها 54 مقالة يضمها الكتاب تشرك غادة قارئها في سرد الأحداث وتجعله جزءا لا يتجزّأ من رحلتها يشعر معها وينتفض ساعة تنتفض هي تجربة تجعلك كقارئ تشعر بوجودك وربمّا طريقة من طرق غادة المخاتلة التي تتوخى إشعار القارئ بمدى أهميته حتى يندمج معها ويتحقق التواصل الذي ترومه.

وفي سيّاق أعمق حيث يمكن الحكم على رحلة "غادة السمّان" وطابعها السّردي بالتميّز والعمق على خلاف ما هو معروف عن جنس الرحلة الذي يتخذ من الوصف الجغرافي مادته الأساس، نتوقّف مع الكاتبة في "أمستردام" إذ تقول:«تشرب قهوتك مع الغصّات والمئات ينضمون إلى الطّابور أمام بيت آن.. تتذكّر مدى هيمنة الحضور "السياحي" اليهودي في أمستردام كصورة عن حضوره في كلّ مدينة زرتها في الغرب، وهو حضور سياحي يتمّ تجييره لأغراض سياسية بنجاح باهر ونحن لاهون..»[1]تتحدّث غادة في هذا المقطع عن مسألة غاية في الأهمية والخطورة أيضا لأنّها تكشف بعين الناقدة ورؤية إنسانة عارفة ومثقفة لا تغرّها المظاهر عن زيف الإعلام الغربي من جهة وقوّته وحنكة من يشتغل فيه من جهة أخرى، إذ يروّجون لثقافتهم ومعالمهم بطريقة توهم العامّة من الناس والسياح بصورة عن الحضارة والرقي في حين ما خفي أعظم، فهي حين تزور أحد المتاحف في أمستردام تكشف عن قصة الفتاة اليهوديّة "آن فرانك" التي عانت وعائلتها من القمع النازي وكتبت إثر اعتقالها في السجن مذكرات أصبحت بعد موتها معلما مهمّا ينطق به المكان، ولأنّ غادة هي الأديبة العربية الهوية التي تعيش في كنف الحروب الأهليّة نجدها لا تتعاطف مع قصة الفتاة بقدر ما تنظر للموضوع كلّه بعين ساخرة وتتأمّل كيف أن الحياة بوجهين والبشر فيها بأوجه أيضا، وكيف يطبع النفاق صورة اليهود الذين يبكون حالهم ويدّعون الإنسانيةأنهم في منطقة ما وهي "فلسطين" يتسببون في بكاء أزلي يومي لأنّ القمع النازي لليهود الذي خلّدته "آن فرانك" هو نفسه القمع الذي يمارسه اليهود في فلسطين المحتلّة وهم يدركون ذلك!.

هكذا باختصار كانت طريقة "غادة السمان" في سرد رحلتها وهي الكاتبة المتمرّسة في فنّ الكتابة حتى درجة الاعتراف استطاعت أن تطرح مشكلة الإنسان ببعد فنّي يخيّل لنا أنه عفوي وتلقائي، في حين كما رأينا أنّ تقنياتها الفنيّة تسهم إلى حدّ كبير في صنع العمل

[1] المصدر نفسه، ص: 129.

الفني بطريقة تمزج بين الحساسيّة والانفعال والتخطيط الدّقيق، كما جعل النضج الفني غادة السمّان تلك الكاتبة التي تكرّس ذاتها في إطار مشروعها الكتابي من خلال مجموع أعمالها الإبداعيّة التي تُظهر قدرة الكاتبة على تجاوز البيئة المحليّة والانتقال إلى آفاق إنسانية أشمل، وقد أهّلها لذلك ثقافتها العالميّة واغترابها المتواصل جعلها توزّع حياتها في بيئات متحرّرة، فضلا عن مزاجها النفسي وهومزاج اندفاعي يميل إلى التمرّد والثورة والتجديد، فكان مشروعها الكتابي ثمرة طبع عصبي لا يعرف المهادنة، ويقوم على أسس الصراحة والعنف في رفض الواقع لأنها تدرك أنّ الأدب المشحون بالانفعال له نتائجه الخطيرة في وعي الناس.

خاتمة:

استطاعت " غادة السّمان" أن تكحل سلسلة طويلة من أدب الرّحلة عند العرب منذ الغزوات الإسلامية إلى مشارف القرن العشرين، والرّحلة عند هذه المبدعة لون من ألوان الهروب من الواقع وسعي نحو المجهول وظمأ لا ينتهي في البحث عن المطلق هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ ما تملكه غادة السّمان من حدس وحسّ فنِّيّين، وثقافة واسعة، قدّمت من الحقائق الاجتماعية والإنسانية في رحلاتها ما يمكن اعتباره مسلّمات موضوعية، في قالب فنّي ممتع أغنى درب الرّحلات، وجنّبه الوقوع في شرك الوصف الجغرافي والسّطحي، هذا الذّي ميّزها كرحّالة عربية مبدعة اتّخذ أدب الرّحلة عندها جزءًا من شخصيّتها الإنسانية التي عُرفت بها.

ليس هذا فحسب فالنّاظر في مقالات غادة الأدبيّة –التي صنّفت ضمن أدب الرحلة- تنكشف له تلك المرآة الجماعيّة التي تنظر الكاتبة من خلالها، فهي مرآة لا فرديّة -بتعبير أحمد زين الدّين- إلا بمقدار ما تتمتّع به "غادة السّمان" من فرادة الموهبة وسعة المخيّلة وعمق الثّقافة والخصوصيّة التعبيريّة والأسلوبيّة والدقّة في ملاحظة أصغر التفاصيل وأخفاها وأصعبها.. كما تكشف هذه المرآة الأدبية المتوحّدة عن بطانة ثقافيّة وفنيّة عميقة لدى الكاتبة في سفرها الذّاتي السرّي الذي يجول في ضمير العالم، كما في محطّات الدهشة الحضاريّة والبشريّة، الذي لم يمنع الكاتبة من أن تحتفظ بجلدها الشرقي وصوتها العربي، بهويّتها وجذورها، وهي إذ تقارب الأمكنة والنّاس فمن خلال مرجع حضاري تجلّى من خلال رؤيتها الواعيّة للذات والعالم فرأينا كيف استطاعت بأسلوبها

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

الفريد وثقافتها المتنوّعة أن تقترب من ذاتها وتعرّيها بروح ناقدة تعكس مستوى النضج الفني لديها.